

بصمات على شاشة العصر

تلاعبت حروف الحكاية بملعبهما. وجعلت من كلاهما الخاسر، رغم أن هذه النتيجة غير مطابقة لقوانين اللعب. إلا أن واقعهما المتواري خلف شاشة العصر قد شهد لهما بمقدرتهما الرائعة على اختراق ما لا يخترق.

أسند ظهره إلى كرسيه، وعلى طول امتداد قدميه أرخاهما تحت الطاولة الحاملة لجهاز العصر، وبكنا يديه بإمكاننا ملاحظة تهيؤ أنامله المثقلة بهموم ما يدور بالخلد للنقر على لوحة مفاتيح الجهاز. وبالنسبة لعينيه فمركزهما بات يتمحور ببؤرة شاشة العصر. فالرائي لحالته من قريب يجزم ببراعة ما سيصنع، أما المدقق من بعيد فبإمكانه أن يصف هذا الثلاثيني بمدمن تكنولوجيا العصر.

لم تكن حكاية محمود سوى حكاية رجل كرس جهوده للعيش في ظل عالم سحيق، أعطاه أقل مما ينوي هذا الرجل أن يقدمه للعالم من قيم، وأفكار، وصفات نافست الطيبة بطيبة تصرفاته. إلا أن عالمه يأبى إلا أن يتجرد من ثوب محمود، يأبى إلا أن يعيش خلف تيار الوهم الذي اندفع لحياة البساطة التي تحتل بيئة محمود ومجاوريه.

أي إنسان هذا الذي تشكل من عجينة ممزوجة بمكونات المثالية المستحيلة التي باتت شيئاً يستقر في قعر أحلامه، ليضمحل ماؤها باضمحلال قيم من حوله، ف تغدو العجين طحيناً رأس ماله فقط نفخه من المراوغين، فيتلاشى في سماء مثالية محمود، وتتبعثر مكوناته مشكلة حروفاً تتشكل في مخيلة محمود مجرد ما رفع رأسه للسماء مستنجداً بالله، أو هارباً من حقائر مندثرة تراكمت على صفحة المجتمع.

الصمت الملازم على شقيقه، كان يتسلسل بمهارة فذة إلى عقول المحيطين، ليبدأ السيلان العصبي بإيصال أمر الحيرة لها، فتحتار عقول المحيطين بمدى قوة تماسكه اتجاه عراك الحياة، فلا ضناك يؤرقه، ولا هم يداهمه، ولا صراع يعتريه. هذا بالنسبة لهم لكن بالنسبة

لي فإني أخال نفسي صاحب بصيرة ثاقبة ورؤية نافذة لأحوال الناس وبالنسبة لشخص الأخرين فهذه لعبتي فأتأو أعوذ بالله منها!- الأقدّر على استئصال ما في أعماق هذه الشخص. الأقدّر على تحليل ما يدور في الخلد، الأقدّر على استنباط الكل من جزء التقطه من عفوية الشخصية الصارمة الصامته.

الشيب الذي أحدث البياض على شعيرات وجه ورأس محمود، لم تأت من فراغ، والوراثة قد غسلت يديها منه، والخريجة التي تقال في الروايات بعيدة كل البعد عنه، أما إذا طابق واقع هذا الشيب ما يدور في صمت إحساسي الآن إذا لأصبحت فعلا صاحب قدرة فذة على التحليل والتفسير.

ملازمتي القليلة له كزميل، لم تسمح لي بتجاوز حدود السؤال التعارفي، وعمري المتصاعد على عتبة العشرين لم يسمح لي بطرق أبواب الثلاثين بهذه السهولة فلزمت احترامي لذاتي واكتفيت بأن أملي سطورى بما التقطته منه من كلمات مبعثرة هنا وهناك وبما جادت به قدرتي على التشخيص فأكون بهذا أول شاهد بحكايتي هذه على مدى عمق صمته.

ذات يوم وكسبيل لبداية رحلة تعارفية ما بيني وبينه سألته عدة أسئلة ، تلك الأسئلة المتعارف عليها في عالم التعارف فكانت إجابته واضحة ومختصرة تكشف عن حقيقة صمته باختصاره ،وشدة احترامه للطرف الآخر بإيضاحه، وبقيت حاملا هذه الفكرة عنه طيلة مشوارى التعارف حتى وصل بي قطار أسئلتى إلى محطة السؤال الأخير والذي به أطل على غير ما عهدته عليه، وكأنني قد وضعت يدي على جرح دفين لم يبرأ من نزيفه إلا بعد مكث من عناه. سألته ما السر الذي يكمن خلف اسمك المستعار الذي تستخدمه أثناء تواصلك مع معارفك على صفحة التواصل الإجتماعي والذي يدعى "الصامت الحزين" فكانت إجابته مطولة مروقة بزخرفة فنية تدل على مدى علو احساسه وبهائه. فأصبح لسان حاله يصفح الحزن بعينه أثناء إجابته.

لمست من خلال إجابته بأنني ذلك الأخ الموالي الذي سيقف لي
بوابة قلبه ليبدأ بالحديث معي عما يؤرقه وعما يحبس كلماته
وأحاسيسه ليجعلها صامته ضمن اطار الكلمات، لا أدري ما نسبة هذا
الإحساس لكنني أشعر بمدى قوته، فابتسمت بداخلي بسمة صامته
منحتني ثقة كانت بعيدة عن خيالي. وعلى اثر هذه الابتسامة قلت له: "
- سأكون عند حسن ظنك بإذن الله.

تركته بعد كلمتي تلك بحاله، وأنا لذاتي محترم، ولحدودي غير
متجاوز، ولرغبتني بالمساعدة متلهف. تركته وأنا واثق بأنه سيحدثني
في اليوم التالي بما لم يحدثه لغيري. فإن كان الأمر مقتصر على
الغد فهذا مقدور عليه، فإن الغد قريب.

تجمعت حروف الحكاية بمجمعهما وجعلت من كلاهما العاشق،
رغم أن هذه النتيجة غير مطابقة لقوانين العشق إلا أن واقعهما
المتواري خلف شاشة العصر قد شهد لهما بمقدرتهما الرائعة على
اختراق ما لا يخترق.

أسندت ظهرها إلى كرسيها، وعلى طول امتداد قدميها أرختها
تحت الطاولة الحاملة لجهاز العصر، وبكلتا يديها بإمكاننا ملاحظة
تهيو أناملها المثقلة بما لا يفهم للنقر على لوحة مفاتيح الجهاز. وبالنسبة
لعينيها فمركزهما بات يتمحور ببؤرة شاشة العصر. فالرائي لحالتها
من قريب يجزم ببراعتها بما ستصنع، أما المدقق من بعيد فبإمكانه أن
يصف هذه العشرينية بمثلها إزاء تكنولوجيا العصر.

لم تكن حكاية سارة سوى حكاية فتاة كرسَتْ جهودها لأن تعيش
في ظل عالم الكلمات، أعطاهما أقل مما تنوي هذه الفتاة أن تقدمه للعالم
من لغة، وإبداع، وتصوير نافست الفن بفن تصرفاتها. إلا أن عالمها
يأبى إلا أن يتجرد من ثوب سارة، يأبى إلا أن يعيش خلف تيار الوهم
الذي اندفع لحياة الثمالة التي تحتل بيئة سارة ومجاوريتها.

أي إنسانة هذه الذي تشكلت من عجينة ممزوجة بمكونات
الكلمات العاجية التي باتت شئ يستقر في قعر أحلامها، ليضمحل

ماؤها باضمحلال لغة من حولها، فتغدو العجين طحيناً رأس ماله فقط
نفخه من المراوغين فيتلاشى في سماء كلمات سارة، وتتبعثر مكوناته
مشكلة حروفاً تتشكل في مخيلة سارة مجرد ما رفعت رأسها للسماء
مستتجة بالله، أو هاربة من حقائر مندثرة تراكمت على صفحة
المجتمع.

السحر الملازم على شخصها، كان يتسلسل بمهارة فذة إلى
عقول المحيطين، ليبدأ السيلان العصبي بإيصال أمر الحيرة لها
فتحتار عقول المحيطين، بمدى قوة إثبات وجودها من بين زحام
الحياة، فلا شخص يجرعها، ولا كلمة تحبطها، ولا مشكلة
تعجزها. هذا بالنسبة لهم لكن بالنسبة لي فإني أخال نفسي صاحب
بصيرة ثاقبة ورؤية نافذة لأحوال الناس وبالنسبة لشخص الأخرين
فهذه لعنتي فأنا وأعوذ بالله منها! - الأقدر على استئصال ما في أعماق
هذه الشخص. الأقدر على تحليل ما يدور في الخلد، الأقدر على
استنباط الكل من جزء التقطه من عفوية الشخصية المرحمة المتكلمة.
الكلمات التي أحدثت ما أحدثت من محبة ترسمها سارة على
وجوه محبيها لم تأت من فراغ، والوراثة قد غسلت يديها منها، ووحى
الأدب الذي يقال في الروايات بعيد كل البعد عنها، أما إذا طابق واقع
هذه الكلمات ما يدور في صمت إحساسي الآن إذا أصبحت فعلاً
صاحب قدرة فذة على التحليل والتفسير.

ملازمتي المدعومة لها كزميل لصديقتها، لم تسمح لي بتجاوز
حدود انتظار ما سينقله لي زميلي كما أتوقع، لكن بعمرى المتصاعد
على عتبة العشرين والقريب من عمرها سيسمح لي بطرق أبواب
الاستنتاج بهذه السهولة فلزمت احترامى لذاتي واكتفيت أن أملي
سطوري بما التقطته من زميلي من كلمات مبعثرة هنا وهناك وبما
جادت به قدرتي على التشخيص فأكون بهذا أول شاهد بحكايتي هذه
على مدى عمق فضولي.

بالنسبة لها فقد كانت أكبر من حلم قد تحقق على ساحة المثالية
المرجوة، وأقوى أنني قد تخترق بحور الأدب بقارب نقي يلفت أنظار

من يتطلعون إلى المثالية بحذب، أناملها الخفية قد جعلت من الحروف كلمات منمقة باهرة تبطن بداخلها مفعول سحري يتسرب إلى قلوب الطيبين بفن غريب عجيب لم يعهده عالم السحر من قبل، وشاشة العصر تشهد لها بأنوثه طاغية تحتل عقل من يعرفها بأسلوب لبق تجاوز حدود المسموح إلا أن صاحب العقل لم يعد يعرف التمييز ما بين المسموح و ضده ، كلماتها المناسبة على صفتها على موقع التواصل الاجتماعي، تمكنت بغراء متين أن تلتصق بصماتها على شاشة العصر، فتغدو "سارة" صاحبة الكلمة الأولى في عالم ذلك الموقع، ويصبح قارئها صاحب اللفتة الشديدة لانتظار كل جديد من هذه الأنثى.

الأسلوب المنمق، والإحساس الرفيع، والأدب الجم، والجمال الخفي، والضحكات التي بموقعها، جعلت منها صيادة لقلوب طيبة تتطير ببراءة على عالية صفحات الموقع، فتراسم بسمه سارة - والتي لم أرها ولم أعرف صاحبها على شفاهها المنديّة- كما إنها واثقة من مهارتها على الصيد متجاهلة أن هذه القلوب ما زالت تتأرجح ببطء في عالم الطيران.

ربما من خلال عفويتي بكلماتي عن سارة قد تراسمت في الذهن صورة عن سارة مفادها أن سارة انسان مستغل، صياد مختال. وربما لي تبريري لجرأتي في هذا الوصف وذلك لأنها تمكنت من خرق حاجز الصامت الحزين، وجعلت بأسلوب خفي من صمت محمود قاموسا من الكلمات ليبيوح لي بحكاية عشق خفية تشكلت أحداثها خلف شاشة العصر.

وأقبل الغد المنتظر، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يثور بركان محمود الصامت ويخرج من عمق لسانه فيتكلم، يتكلم بمقدار الإخاء الذي فرضه علي، بمقدار محبتي له والتي وازت محبتي لأخوتي فأعده أحد اخوتي الكبار أنتظر منه رشفة من مشاكله لأهرع له بالمساعدة، لكن أيا من هذا لم يحدث، وما رسمته في داخلي من حسابات وتخيلات اندثر في سيل المهملات بداخل نبضي. الذي حدث

فقط شجار كلامي حدث في قاعة الزمالة بمكان عملنا، فزملائي يتناقشون حول شاشة العصر بشكل عام وبشكل خاص حول شخص سارة المختفية خلف شعار "عاشقة الكلمة" على موقع التواصل الإجتماعي. فليس غريب أن تكون سارة هي موضع الحديث، صفاتها السابقة كافية لتبرير ما يحصل، وبالنسبة للزملاء فكان كل واحد منهم يحمل صورة لسارة مختلفة عن الآخرين، فمن بين معجب، وحاسد، ومستغل تتنوع الصور والكل يضع بصمته على شاشة العصر. إلا أنني من بين الزملاء لم يستدع انتباهي سوى الصامت الحزين أقصد الزميل محمود. فقد كان مغاير لكل ملتزم الصمت لإبداء رأيه بسارة، كنه نائر للقول، محدث للشجار. من ناحية أنه يريد اسكات الجميع وإنهاء سيرة سارة، فسارة ليست موضع حديث يجب أن يتكلم به.

بالنسبة للزملاء فكل واحد منهم التزم صمته، ولم يعاودوا الحديث بخصوص سارة، نزولا عند رغبة زميلهم محمود من باب أنه شخص ملتزم، وصاحب مبادئ، وأن مبادئه تعترض على استضافة أي عنصر نسائي أجنبي على صفحته، ولهذا لا يليق بهم أن يتحدثوا عن صديقة داهمت صفحاتهم على الموقع أمام زميلهم المتحفظ.

هذا بالنسبة لهم وهم أحرار بتفكيرهم، لكني كملاحظ ومدقق جيد بالأمور فلي لعبتي الخاصة، ولي رأيي الذي ينبع من وراء ملاحظاتي ودقتي في الأمور فلا شيء من عبث، ولا عبث من فراغ. حمرة عيناه أثناء الحديث لم تأت من عبث أثناء الإتيان بسيرة غير محمود لسارة من قبل أحد الزملاء، وعبثه بأدوات ما على طاولته كشخص غير مبالي أثناء الإتيان بسيرة محمود ومادحة لسارة من قبل زميل آخر لم تأت من فراغ.

إن أو احدى أخواتها دخلت في الموضوع والموضوع ليس موضوع تحفظ أو التزام. الموضوع يخفي بين طياته حكاية. وهذه الحكاية هي حكايتنا هذه، حكاية محمود وسارة، حكاية الكلمة

والصمت، حكاية المثالية والأدب، حكاية العشق المتواري خلف
أطلال الوهم.

ألا تريد أن تخرج تلك الكلمات من بين صمت شفاهك، أم أنك
مصر أن تمرر فضولي بتيهاء الكتمان، مشككتي باتت يا خلي أكبر
من موضوع فضول، انما تجاوز حدوده وطرق باب الأخوة بقلبي،
وصمتك يثير شغب جوفي يجعله يتمرد على كياني كطفل يحملق
بالكسل بنظرات تهكم. وإن كان الموضوع الأعوام العشرة التي
تفصل ما بين عمرينا فهيا يا قطار العمر عجل من مسيرك قرب
بعمرى لعمره وثبت عمره بعئلة الأيام. وتخرج تلك الكلمات وتبدأ
عقدة الحكاية.

وضعت يدي على خدي حتى سرى مفعول التخدير اللاإرادي
بها، فعطل مصدر الإحساس بها وتسلل إلى عيني حتى باتتا تلاحقان
تصرفاته وحركاته أيضا بشكل لاإرادي حتى غدت عيناى تراقبان ما
يفعله ذلك الصامت، وكأتهما فأران حقل يحملقان بفريسة قمحية
متناثرة هنا أو هناك فلا يجدان.

جاءت عيني بعينه، وحن موعد الفهم الصامت، لتظهر بسمة
طفيفة خجلة من التطفل على شفاهي البائسة، ليردها لي بضحكة
تصحبني معه ليبدأ بالحديث، هو يتكلم وأنا لست بمصدق إن كانت
أذني تسعني أم أنها تخونني، هل يعقل أن الصامت قرر أن يتحرر
من صمته ويبح لي بما سأملئ به حكايتي هذه، أم أنه سيبقي على
الغموض مكتنفا لعناصر حكايتي فلا تكون الحكاية حكاية ولا يكون
للمكان مكان ولا للزمان زمان وبالنسبة للعقدة فلتصل إلى ذروة
تأزمها في عالم الغموض ذاك.

... وحن موعد قطاف الدموع، وقد أذن سجاتها بالتحرر، لكن ما
ذنبى أنا كي تتحرر على دوري أم لتبقى تعذبني كوني أنا قاطفها،
لكني برغم ذاك الأسى الذي أحدثته لتلك العيون الصامته إلا أنني قد
شعرت أنني تفوقت على الانجاز بحد ذاته وأنتى قد أذنت لجزء من
صمته المتمكن أن يفيض عبر دموع مريحة، مريحة للغاية.

لم أدر بأي تصرف سأتصرف إزاء دمعائه، وبأي حال سأواجهها، لم يكن بوسعي إلا أن أقف أنا الآخر صامتا فيغمرنى صمته بحنائه ويمنحني حق الصمت، درت حول نفسي عدة دورات، أطبقت راحتي على جنبي بقوة، تلفظت أنفاسي البائسة بعنف، وودعت المكان وأنا سجين لعنة الفضول، شاتما حق الأخوة المفاجئ. فقررت أن أطلع على صفحة سارة لعلي بخبرتي على جهاز العصر أن أعلم موقعها ومكان سكنها أو أي وسيلة اتصال تمكن صديقي محمود من التواصل معها، فاكشفت أخيرا بعد عناء البحث وبطريقة خاصة أن سارة ليست سارة وأن أنوتنها قد استقرت في عمق الوهم، لقد تبين لي أن هناك شابا يكن بالكرامية لصديقي محمود قد انتحل شخصية سارة الوهمية وبدأ في خداع قلب محمود الطيب، لذلك طلبت من ذلك الشاب المخادع أن يحذف صفحة سارة من موقع التواصل الاجتماعي للأبد وإلا سأكشف أمره أمام كل من يعرفه، وبهذا قد اختفت سارة من حياة محمود للأبد، وبالنسبة لصديقي فعليه أن يتحمل ألم الفراق قليلا خيرا من أن ينصدم قلبه الطيب وتختفي الثقة من داخله.

النهاية